

المحاضرة الثالثة

❖ طبيعة الأدب ووظيفته:

✓ تمهيد:

يكاد يجمع النقاد والأدباء على أنّ الفن كان ضرورة ولا يزال وسيبقى ضرورة أبداً، ولا بد لنا أن ندرك منذ البداية أننا عندما ندرس طبيعة الأدب ووظيفته التي يؤديها لا بد أن نتساءل: هل طبيعة الأدب ووظيفته ثابتة جامدة، أم تتغير مع تغير الواقع والظروف التي نعيش فيها؟

يرى عز الدين إسماعيل أن مفهومات طبيعة الأدب ووظيفته قد تغيرت عبر التاريخ، وقد مال البعض في تعريفه للأدب إلى تطبيق ميدانه حين نظر إلى بعض الإنتاج الفكري دون بعضه الآخر. وفي الجانب المقابل نجد من يتوسع في معنى الأدب حتى ليدخل في ميدانه الكتابات التشريعية والدينية والطبية.¹

(1) طبيعة الأدب (أرسطو - الشكلاونيون الروس):

إنّ البحث في طبيعة الأدب يعني بيان جوهر الأعمال الأدبية أي خصائصها وسماتها العامة التي تميّزها عن غيرها من الأعمال المطبوعة. فالأدب له عالمه اللغوي الذي يختلف عن العوالم اللغوية الأخرى كالنصوص الفلسفية والتاريخية. فهو ليس نصاً لغوياً إنما نص يتوسل باللغة ليصل بها إلى الجمال. حتى وإن كان غالبية النقاد الأدبيين قد عرّفوا الأدب بوظيفته أكثر مما عرفوه بطبيعته، إلا أنّ الكثيرين كما يذكر تودوروف قد سلكوا مسلك القول

- الأدب وفنونه، دراسة ونقد، عز الدين إسماعيل، ص: 11.¹

بأن للأدب طبيعة خاصة، وهذا ما يجزم به هذا الأخير ليرى هو أيضا أنّ للأدب كيانا بنيويا كما له كيان وظيفي.² وبرغم من أنّ أفلاطون قد طرد الشعراء من جمهوريته وأطاح بهم إلاّ أنّه هو نفسه يسلم في مواطن من بحثه في كتابه الجمهورية أنّ للأدب كيان طبيعي.

لكن يمكن الجزم على أنّ نعدّ أرسطو من المنظرين الأوائل لنظرية الأدب والأكثر حضورا من خلال ما قدمه من إجابات محددة وشاملة عن تساؤلات ظلت تثير اهتمام الفلاسفة والنقاد والأدباء قديما، ما الأدب؟ الإجابة على هذا التساؤل تطب من أرسطو البحث عن وضع أسس مجموعة من الخصائص لتمييز طبيعة الأدب عن الأشكال الأخرى من النصوص قيد الطبع، كالتاريخ والفلسفة وغيرها من الفنون الأخرى، منطلقا من فكرة كانت ترمي إلى إعادة تنظيم المعرفة، عن طريق الملاحظة والتجريب والتحليل، ليصل إلى أنّ "الأدب عبارة عن ظاهرة محكومة بأصول".³

لقد استطاع أرسطو بفكره الثاقب أن يستحدث مفهوما جديدا للمحاكاة من خلال إفراغ هذه النظرية من محتواها النهائي السلبي عند أفلاطون وصياغة نظرية جديدة إيجابية تؤصل لقاعدة ينطلق منها في التأسيس لطبيعة الأدب، فكان كتاب فنّ الشعر مثالا على ذلك.

إنّ الأدب في نظر أرسطو نوع من المحاكاة لكن لا باعتباره نقلا حرفيا وتقليدا وتشويها وتزويرا للحقائق، بل إبداعا وابتكارا، فالأديب حينما يحاكي لا يكتفي بنقل الأصل كما هو كائن بالفعل، بل ينقل ما يجب أن يكون، ليرفع بذلك التهمة التي ألصقها أفلاطون بالشعر، وتكون المحاكاة إذاً أبعد ما تكون عن التقليد، فهي تصوير فني للإنسان، ومعنى هذا أنها وسيلة لنقل الطبيعة خطوات إلى الأمام في طريق البحث عن الهدف، ومحاولة تكملة ما تركته الطبيعة ناقصا.⁴

من هذا المنطلق الثابت استلهم أرسطو مفهومه لطبيعة الأدب في كتابه فنّ الشعر باعتماد منهج الاستقراء والانتقال به للوصول إلى مبدأ الاستنباط العقلي الصوري، والذي من خلاله

- ينظر، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، تودوروف، تر: عبود كاسوحة، ص: 9.

- فنّ الشعر، أرسطو، تر: إبراهيم حماده، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، د ت، ص: 21.

- ينظر، البنى الأدبية وبنية الواقع والظاهرة الروائية، عبد الرحمن بوعلي، ص: 96.

قدّم لنا تفسيراً وشرحاً عميقاً لظاهرة الأدب،⁵ وبدأت بوادر نظرية أدبية تتشكل مع أرسطو لتكشف لنا عن وجه آخر يكتسب الدلالة الأدبية المحضة، ويجعل الأدب مقصوراً على الفنّ الإنساني لا تتعداه إلى سواه.

أما الشكلاونيون الروس فطبيعة الأدب في تصورهم هو الواقع المادي للنص الأدبي ذاته، مستبعبدين بذلك كلّ السياقات الخارجية للنص، كالسياق النفسي و التاريخي والاجتماعي. فالأدب كما عرفه جاكسون " عنف منظم يمارس على الحديث العادي، الأدب يحوّل ويكثف اللغة العادية، ويحيد بانتظام عن حديث كلّ يوم ".⁶ ولا يبتعد فراي كثيراً ليصرّ على أنّ طبيعة الأدب تكمن في البنية اللفظية المستقلة ذاتياً عن أيّ سياق خارجي، المحيلة إلى ذاتها في نظام مغلق من العلاقات النسقية اللفظية.⁷

وهنا بدأت نظرية الأدب تتحوّ منحى آخر يركز على الروح العلمية العملية، والاعتناء بالكيفية التي تعمل بها النصوص الأدبية فعلاً، فالأدب ليس ديناً زائفاً أو علم نفس أو علم اجتماع بل هو تنظيم محدّد للغة.⁸

(2) وظيفة الأدب:

يمكن القول أنّ وظائف الأدب لم تعرف تبدلات جذرية على مدى التاريخ، لكن في الوقت نفسه لم تسر على وتيرة واحدة، بل تغيرت الوظائف بتغير الاتجاهات المختلفة، فأفلاطون يربط الأدب بوظيفة كلّ ما هو شرعي وخير وإلاّ أصبح نشاطاً مضراً مزوراً للحقائق، أمّا أرسطو فوظيفة الأدب عنده هي التطهير، وبالانتقال إلى هوراس نجد أنّ وظيفة الأدب تكمن

- ينظر، في نظرية الأدب، شكري عزيز الماضي، دار المنتخب العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1993م، ص:17.⁵

- مقدمة في نظرية الأدب، تيري إيغلتن، ص:12.⁶

- ينظر، المصدر نفسه، ص:119.⁷

- ينظر، نظرية الأدب، تيري إيغلتن، تر: نائر ديب، ص:13.⁸

في المتعة والفائدة، ومنها ما ارتبط بالمجتمع، وغيره بالنفس، ومنهم من قال بالالتزام، والذي قال بالعدوى..

كلّ هذه التجاذبات زادت القضية حضوراً وأهمية، لكن سنضيّق من دائرة الحديث عن وظائف الأدب لنحصرها بإيجاز عند ثلاثة أعلام: أرسطو، سارتر، تولتسوي.

• وظيفة الأدب عند أفلاطون:

اعتبر أفلاطون أنّ وظيفة الأدب لا تتفصل عن طبيعته فهي عنده تسلية وهزل ولعب، وعليه فوظيفة الأدب في منظوره هدامة كونها لا تحقق الخير والنفع ولا توصل إلى الحقيقة، مركزاً في الوقت ذاته على الوظيفة الاجتماعية⁹ أي كلّ ما هو شرعي وخير.

• وظيفة الأدب عند أرسطو:

يرى أرسطو أنّ وظيفة الفنّ هو التطهير أي " تطهير الانفعالات والتغلب على الخوف والشفقة بحيث تمكن المتفرج الذي يطابق بين شخصه وبين أورست أو أوديب من التحرر من تلك المطابقة، ويتسامى فوق صروف القدر العمياء، وبذلك يلقي على كاهله مؤقتاً قيود الحياة وأعباءها " ¹⁰.

ومعنى هذا أنّ أرسطو قد استبدل فكرة التطهير وهي فكرة نفسية اجتماعية بفكرة أفلاطون التي كان يريد أن ينفى خلالها أن للأدب علاقة بالمعرفة، وأنه نشاط هازل، أو عمل لا يكتسب صفة الجدية على الأقل.¹¹

لقد رأى أرسطو أنّ الشعر ليس ضاراً، بل هو نافع، فهو " مطهّر، وهو يخلصنا كتاباً وقراء من عناء وشقاء الانفعالات " ¹²، لقد أكد أرسطو على أنّ وظيفة الشعر تنبيه العواطف وصرفها ليجد لها متنفساً ومخرجاً، ويهيئ لها مسرباً للاضطراب العاطفي وتحقق الرضا الجمالي في النفس والبعث على الراحة والهدوء.

- ينظر، دراسات مختارة في نظرية الأدب، أحمد موسى ويس، ص: 151.⁹
- ضرورة الفن، إيرنست فيشر، تر: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص: 16.¹⁰
- دراسات مختارة في نظرية الأدب، أحمد محمد ويس، ص: 15.¹¹
- مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط1، 1996م، ص: 64.¹²

وهكذا تبدو وظيفة الأدب بشكل عام عند أرسطو كشفا عما وراء أثر الشعر في المتلقي من خلال المعيار الأخلاقي والوظيفة النفسية.

● وظيفة الأدب عند هوراس (65 ق م):

وظيفة الأدب عند هوراس هي المتعة والفائدة، يقول: " غاية الشعراء إما الإفادة، أو الإمتاع، أو إثارة اللذة وشرح عبر الحياة في أن واحد... فمن مزج النافع بالممتع عن طريق تسلية القارئ وإفادته معا فقد نال رضا الجميع".¹³ ووظيفة الشعر هنا في عين هوراس لا بد أن يتم التركيز فيها على تحقيق شرطين هاميين هما: اكتمال بنائية الموضوع في وعي الفنان (الإفادة)، و اكتماله في محتوى العمل الفني نفسه (المتعة).

● وظيفة الأدب عند تولتسوي:

بالنسبة إلى تولتسوي وظيفة الأدب تكون على مقدار انتشاره من طريق العدوى، فهو يرى أن " الفن الحقيقي هو أن تنقل إلى غيرك ما تحسّ به في نفسك وتأثرت به تأثرا عميقا، والفرق بينه وبين الزائف من الفنّ أن يحس الفنان حقا في أضواء نفسه ما يريد أن ينقله إلى غيره، وأن يبلغ من قوة الأداء أن يؤثر في غيره بحيث يجعله شريكا له في إحساسه... وإنما تتجلى قوة الفنان حقا في كمال هذا النقل، وكلما كثر عدد من يشاركونه في إحساسه ذاته كان إلى ذلك الكمال أقرب.¹⁴

ومعنى ذلك أنه كلما كانت المشاعر أقوى وانتقالها أقوى كان الفنّ أصدق، بغض النظر عن مضمونه أو قيمة العواطف التي ينقلها إلينا، وإذا نظرنا إلى آراء تولتسوي نجدها تحمل فكرا عمليا في تناول الناس، فليس الأدب عنده مصدر لذّة، بل إحدى وسائل التواصل بين الناس.

● وظيفة الأدب عند سارتر:

لقد حدّد سارتر وظيفة الأدب، وقال بأنها التزام تجاه قضايا العصر، فقيمة الأدب عنده على حسب التزامه بعصره، وأنّ جودة الأدب وردائه تعتمد على العصر الذي نشأ فيه، فما إن

- فن الشعر، هوراس، تر: لويس عوض، ص: 123-134.¹³
- ينظر، دراسات مختارة في نظرية الأدب، أحمد محمد ويس، ص: 17¹⁴

ينقضي العصر فلا يصبح لهذا العمل الأدبي علاقة بالجودة أو الرداءة التي مثلتها في عصرها.

لقد أشار سارتر إلى وظيفة الأدب وحصرها في الالتزام، وراح يصرح بأن على الأديب ان يكون التزاميا في كل ما يكتب، وأن يربأ بنفسه عن أن يلعب دورا سلبيا مسفا بعرض مساوئه ووجوه شقائه ومظاهر ضعفه.¹⁵

وظيفة الأدب

